النظرية التفسيرية
في المدرسة الإمامية
(١)

السيّد زهير الأعرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة :

نعني بالنظرية التفسيرية المسلك الذي سلكه المفسّرون من علماء أهل البيت عليهم السلام في بيان المعاني القرآنية عبر التفسير النقلي الروائي الصادر عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام ، فهو تفسيرٌ بالمأثور في مقابل التفسير بالرأي الذي تمسّكت به مدرسة الحديث والرأي .

لقد نبع الاهتمام بالقرآن الكريم في المدرسة الإمامية من كونه كتاب الله المجيد المصون المحفوظ بين الدفّتين الذي لا تطاله يد التحريف والتزوير ، وقد قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه الكريم : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[١] ، وقال عزّ من قائل : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾[٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ**

(١) سورة الحجر ١٥ : ٩ .

(٢) سورة البروج ٨٥ : ٢١ ـ ٢٢ .

مَكْنُونٍ ﴾[١] ، وأوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين ، وهو من الأحاديث الصحيحة المتواترة التي رواها الفريقان[٢] .

ولذلك أجمع فقهاء المدرسة الإمامية على أنّ أشرف العلوم قدراً وأعلاها منزلة هو العلم بمعاني القرآن الكريم ، وقد اهتمّ علماؤنا بتفسير كلام الله المجيد ، وأصبح القرآن الكريم في المدرسة الإمامية محور المعرفة الإسلامية في التشريع والفقه والفلسفة والكلام والعرفان والأخلاق .

وعندما نتحدّث عن نشأة التفسير وتطوّره وعن مناهج المفسّرين وطرقهم فإنّنا نريد أن نبيّن اهتمام المدرسة العلمية السائرة علىٰ هدىٰ أهل البيت عليهم السلام بالقرآن الكريم باعتباره الأصل الأوّل من أصول مباني الإسلام في المعرفة والتشريع ، فـ: التفسير هو : «إيضاح مراد الله تعالىٰ من كتابه العزيز ، فلا يجوز الاعتماد فيه علىٰ الظنون والاستحسان ولا علىٰ شيءٍ لم يثبت أنّه حجّة من طريق العقل أو من طريق الشرع ، للنّهي عن اتّباع الظنّ وحرمة إسناد شيءٍ إلىٰ الله بغير إذنه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾[٣] ... إلىٰ غير ذلك من الآيات والروايات الناهية عن العمل بغير العلم . والروايات الناهية عن التفسير بالرأي مستفيضة من الطريقين ... ولابدّ للمفسّر من أن يتّبع الظواهر التي يفهمها العربي الصحيح ، أو يتّبع ما حكم به العقل الفطري الصحيح ، فإنّه حجّة من الداخل

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) الأصول الستّة عشر : ٨٨ ، بصائر الدرجات : ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ح ٣ ـ ٥ ، دعائم الإسلام ١/٢٨ ، مسند أحمد ٣/١٤ و١٧ و٢٦ و٥٩ ، سنن الدارمي ٢/٤٣٢ ، فضائل الصحابة للنسائي : ١٥ ، المستدرك للحاكم ٣/١٠٩ و١٤٨ ، مسند ابن الجعد : ٣٩٧ .

(٣) سورة يونس ١٠ : ٥٩ .

كما أنّ النبي ﷺ حجّة من الخارج»[1].

ولاشكّ أنّ النظرية التفسيرية الإمامية تستخدم العقل للاستدلال بالحكم ومعرفة المعاني باعتبار أنّ العقل يعدُّ طريقاً موصلاً إلىٰ العلم القطعي، أي إنّ العقل يدعو إلىٰ اعتماد تفسير القرآن بالقرآن وردّ المتشابه إلىٰ المحكم واستخدام السنّة الصحيحة في استنباط المعاني والأحكام أو تأويلها، ولذلك أصبح مبنىٰ المدرسة الإمامية قائماً علىٰ أصلٍ مهمٍّ وهو أنّ المفسّر لا يرتقي إلىٰ مستوىٰ التفسير إلّا إذا كان عالماً مجتهداً بأحكام الشريعة عارفاً بالمباني الأصولية واللغوية والعقلية.

وعندما نستخدم العقل طريقاً لمعرفة المعاني والأحكام فإنّنا نقصد به الحكم النظري بالملازمة بين الحكم الثابت شرعاً أو عقلاً وبين حكم شرعيٍّ آخر، كالملازمة بين المقدّمة والواجب في ذي المقدّمة، أو الحكم باستحالة التكليف بلا بيان الذي يلزم منه حكم الشارع بالبراءة، أو الملازمة بين عقيدة قطعية وعقيدة أُخرىٰ كاستحالة التجسيم الملازمة لاستحالة رؤيته عزّ وجلّ.

وبناءً علىٰ ذلك نلحظ أنّ تفاسير المدرسة الإمامية تعدُّ من أدقّ التفاسير القرآنية وأقربها إلىٰ المعنىٰ الواقعي في فهم القرآن الكريم لأنّها مستندة علىٰ ما ورد عن النبي ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين هم أدرىٰ بمعاني القرآن الكريم من غيرهم من المسلمين، وأصبحت كتب الشيعة التفسيرية نجوماً متلألئة في سماء المعرفة القرآنية، كـ: **التبيان في تفسير القرآن** للشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، **ومجمع البيان** للطبرسي (ت

(١) البيان في تفسير القرآن: ٣٩٧.

٥٤٨ هـ)، **وزبدة البيان في أحكام القرآن** للمقدّس الأردبيلي (ت ٩٩٣ هـ)، **وآيات الأحكام** للاسترآبادي (ت ١٠٢٨ هـ)، **ومسالك الأفهام إلىٰ آيات الأحكام** للكاظمي (ت ١٠٦٥ هـ)، **وتفسير الميزان** للسيّد الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ)، **والبيان في تفسير القرآن** للسيّد الخوئي (ت ١٤١٣ هـ) والذي لم يظهر منه بكلٍّ أسف إلّا مجلّدٌ واحد.

ولا ننسىٰ أنّ تلك التفاسير قد استعانت بالعلوم الأدبية من صرف ونحو ولغة كأدوات لبيان المعنىٰ، واستعانت أيضاً بالأسلوب الجمالي لعرض فنون كلام الله المجيد وتبيين خصائص القرآن وكنوزه المعنوية، واستعانت بالبلاغة لعرض الكناية والاستعارة والتشبيه والمجاز والتمثيل والتقديم والتأخير والتنكير والتعريف والفصل والوصل والمجاز اللغوي والمجاز العقلي.

والأصل في تفسير القرآن هو إرشاد الناس إلىٰ كلام الله عزّ وجلّ وإدراك حكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام علىٰ وجه يسوق الإنسان إلىٰ معرفة ربّه وطاعته.

وقبل أن نتحدّث عن التاريخ التفسيري في المدرسة الإمامية لابدّ من إلقاء الضوء علىٰ علاقة أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن الكريم وجهادهم المتواصل من أجل صيانة ذلك الكتاب الإلهي المجيد.

❀ ❀ ❀

الفصل الأوّل

العلاقة بين القرآن الكريم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام

القرآن الكريم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام :

من الأمور المبنائية عند الإمامية هو الربط بين القرآن الكريم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وبالخصوص علاقة الإمام علي عليه السلام بالقرآن الكريم ، فقد اهتمّ الإمام عليه السلام عند ملازمته النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فلا عجب أن يقول عليه السلام : «والله ما نزلت آية إلّا وقد علمتُ فيما أنزلت وأين نزلت ، وإنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»[١] .

وكان من اختصاصه عليه السلام جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢] حتّى يُصان من التحريف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يختصّ بعليّ عليه السلام ويعلّمه معاني القرآن الكريم وأسراره وخفاياه ، وكان الإمام عليه السلام يجهر بذلك مصرّحاً : «ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ ، فكتبتها بخطّي ، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ، ودعا الله عزّ وجلّ أن يعلّمني فهمها وحفظها ، فما نسيتُ آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ ولا علماً أملاه عليّ فكتبته ، وما ترك شيئاً علّمه الله عزّ وجلّ من حلال وحرام ولا أمر ولا نهي وما كان أو يكون من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته ، فلم أنسَ منه حرفاً واحداً ، ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله تبارك وتعالى بأن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمةً ونوراً ،

(١) مناقب الخوارزمي . الفصل السابع : ٤٦ .
(٢) توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل: ٤١٨.

ولم أنس من ذلك شيئاً ولم يفتني من ذلك شيءٌ لم أكتبه . . .»[١] .

وكان الإمام عليه السلام يعلّم المسلمين القراءة وأحكام الدين ، ويؤيّده رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها : «كان علي عليه السلام إذا صلّى الفجر لم يزل معقّباً إلى أن تطلع الشمس ، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس فيعلّمهم الفقه والقرآن»[٢] .

وهذا عبد الله بن مسعود يقول : «قرأتُ سبعين سورة من فيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقرأتُ البقية على أعلم هذه الأمّة بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٣] .

مقدّمات حول كتابة القرآن الكريم[٤] :

لا شكّ أنّ الثقافة المكتوبة لم تكن متداولة بشكل واسع قبل الإسلام بل كانت الثقافة الاجتماعية ثقافة شفهية ، ولذلك فقد أُشير إلى المعلّقات السبعة التي علّقها العرب على جدار الكعبة قبل الإسلام بشيءٍ من الاهتمام والإكبار لأنّه كان من النادر كتابة المواد الثقافية أو قراءتها ، وعندما جاء الإسلام أحدث ثورة حقيقية في الثقافة المكتوبة ، خصوصاً عند كتابة القرآن زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ومن أجل فهم الأجواء التي كانت سائدة زمن كتابة القرآن الكريم لابدّ من ترتيب النقاط التالية :

١ ـ إنّ الذين كانوا يعرفون الكتابة في الصدر الأوّل من الإسلام

(١) بحار الأنوار ـ رواه المجلسي باسناده عن سليم بن قيس الهلالي ـ ٢٦/١٩ الطبعة القديمة .
(٢) شرح نهج البلاغة ١٠٩/٤ .
(٣) ينابيع المودّة ـ المودّة الثالثة : ٢٤٧ .
(٤) انظر التفصيل في كتاب الصّدّيق الأكبر : ٢٦٩ ـ ٢٨٤ ، ٥٩٩ ـ ٦١٠ .

قليلون، وكان منهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأبيّ بن كعب الأنصاري، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان (بعد عام الفتح)، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (الذي ارتدّ في حياة النبي صلى الله عليه وآله وأمر صلى الله عليه وآله بقتله)، وعثمان بن عفّان، وآخرون.

٢ ـ انتشرت الكتابة في المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله. فعندما وقعت غزوة بدر الكبرىٰ وتمّ تأسير سبعين رجلاً من مشركي قريش وكان فيهم عدد من الكتّاب قَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله من الأُمّيّين الفدية بالمال وجعل فدية الكاتبين منهم تعليمهم المسلمين القراءة والكتابة، فكلّف كلّ أسير بتعليم عشرة من المسلمين. وبذلك انتشرت الثقافة المكتوبة للقرآن في تلك المرحلة، وازدهرت الأمصار الإسلامية بنعمة الثقافة الإسلامية، وبقيت الأُمّيّة الصرفة بين الأعراب من البدو في الصحراء العربية.

٣ ـ لابدّ من التمييز بين من كان يكتب الرسائل والعهود زمن النبي صلى الله عليه وآله وبين من كان يكتب الوحي ويجمع القرآن، فإنّ في كتابة القرآن وجمعه أثراً عظيماً في حفظ الإسلام وعدم تحريف الكتاب المجيد، بينما لم يكن ذلك الأثر في كتابة الرسائل، فهذا عبد الله بن أرقم كان كاتباً للرسائل فقط ولم يرد أنّه كان كاتباً للقرآن. قال في **الاستيعاب** في ترجمة عبد الله بن الأرقم: «إنّه كان من المواظبين علىٰ كتابة الرسائل عن النبي صلى الله عليه وآله عبد الله بن الأرقم الزهري...»[1].

وقد وقع في خطأ عدم التمييز بين كتابة الرسائل وكتابة القرآن بعض كبار المؤرّخين ومنهم اليعقوبي في تاريخه، حيث أطلق الكلام حول كتّاب

(١) الاستيعاب ٦٩/١.

الوحي ولم يقيّده بكتابة الوحي أو الرسائل أو العهود، فقال: «وكان كتّابه الذين يكتبون الوحي والكتب والعهود عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفّان، وعمرو بن العاص بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والمغيرة بن شعبة، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وحنظلة بن الربيع، وأبي بن كعب، وجهيم بن الصلت، والحصين النميري»[1].

٤ ـ إنّ الكتابة إذا كانت مجرّدة من مضامينها الرسالية فإنّها لا توجب شرفاً ولا منزلةً ولا تثمر في صيانة كتاب الله المجيد، فقد كان عبد الله بن سعد كاتباً لكنّه ارتدّ وبات يشهّر بالنبوّة لعدم إيمانه بعمله الذي كان يؤدّيه، وكان معاوية قد أعلن إسلامه قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة أشهر فقط وطرح نفسه إلىٰ العبّاس ليشفع له إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فيعفو عنه[2] ومع ذلك فقد زعم بأنّه كان من كتّاب الوحي، نعم ربّما كتب شيئاً من الرسائل للنبي صلى الله عليه وآله في أواخر حياته ولكن لم تتّفق الأخبار أنّه كان كاتباً للوحي.

عليّ عليه السلام وجمع القرآن الكريم:

كان موضوع كتابة القرآن المجيد زمن رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً في غاية الأهمّية، ذلك أنّ القرآن إذا لم تتمّ كتابته وامضاؤه من قبل النبي صلى الله عليه وآله في حياته فإنّه سيكون عرضة للأخذ والردّ واختلاف المسلمين عندما يرحل صلى الله عليه وآله إلىٰ العالم الآخر، فكان من اهتمامات عليّ عليه السلام الرئيسية كتابة القرآن المجيد في المدينة خلال حياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) تأريخ اليعقوبي ٦٤/٢.
(٢) نهج الحقّ وكشف الصدق: ١١.

١ ـ كاتب الوحي عليه السلام :

تعلّم أمير المؤمنين عليه السلام القراءة والكتابة في مكّة ، ولكن المصادر التأريخية لم تذكر لنا طريقة التعلّم ولا أسلوبها . وعلىٰ أيّ تقدير فإنّ الذي يهمّنا من قدرة عليّ عليه السلام علىٰ الكتابة والقراءة هو كتابته عليه السلام للقرآن الكريم وجمعه له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . وحسبما يساعد عليه الدليل فقد ثبت أنّ علياً عليه السلام كان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد نقل العلّامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) عن **بصائر الدرجات** : «عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان جبريل يُملي علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يُملي علىٰ عليّ عليه السلام . . .»[١] .

وكتب ابن شهرآشوب في **المناقب** قائلاً : «أفلا يكون عليّ عليه السلام أعلم الناس وكان مع النبيّ صلى الله عليه وآله في البيت والمسجد يكتب وحيه ومسائله ويسمع فتاواه ويسأله . وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا نزل عليه الوحي ليلاً لم يصبح حتّىٰ يخبر به علياً عليه السلام وإذا أُنزل عليه نهاراً لم يمس حتّىٰ يُخبر به علياً»[٢] .

وإلىٰ ذلك أشار ابن عبد ربّه في فصل صناعة الكتاب : «فمن أهل هذه الصناعة عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وكان مع شرفه ونبله وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله يكتب الوحي»[٣] .

والغريب استغرابه بالقول : «وكان مع شرفه ونبله وقرابته من

(١) بحار الأنوار ـ الطبعة الجديدة ١٨/٢٧٠ . نقلها عن **بصائر الدرجات** عن العبّاس بن معروف عن حمّاد بن عيسىٰ بن ربعي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام .
(٢) مناقب ابن شهرآشوب ٢/باب المسابقة إلىٰ العلم .
(٣) العقد الفريد ٣/٥ فصل صناعة الكتاب .

رسول الله صلى الله عليه وآله يكتب الوحي» ! وهل كتابة الوحي إلّا شرف لا يستحقّه إلّا علي عليه السلام ؟ !

وقد احتجّ عليه السلام حول معرفته بالقرآن المجيد وعلومه علىٰ جماعة من المهاجرين والأنصار فقال : «يا طلحة إنّ كلّ آيةٍ أنزلها الله تعالىٰ علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ يدي ، وتأويل كلّ آيةٍ أنزلها الله تعالىٰ علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله وكلّ حلال وحرام أو حدٍّ أو حكم أو شيءٍ تحتاج إليه الأُمّة إلىٰ يوم القيامة فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ يدي ، حتّىٰ أرش الخدش»[١] .

ويمكن عطف ما ورد عنه عليه السلام علىٰ ما تقدّم : «ما دخل رأسي نوم ولا غمض [جفني] علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله حتّىٰ علمتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله ما نزل به جبرئيل في ذلك اليوم من حلال أو حرام أو سنّة أو أمر أو نهي وفيما نزل وفيمن تنزّل . . .»[٢] .

وما ورد في كتاب **سليم بن قيس** : «جلستُ إلىٰ عليّ عليه السلام بالكوفة في المسجد والناس حوله فقال : سلوني قبل ان تفقدوني ، سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلّا وقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وعلّمني تأويلها . فقال ابن الكوّاء : فما كان ينزل عليه وأنت غائب ؟ فقال : بلىٰ ، يحفظ عليّ ما غبتُ ، فاذا قدمتُ عليه قال لي : يا عليّ أنزلَ الله بعدك كذا وكذا ، فيُقرِئُنيه ، وتأويله كذا وكذا فيعلّمنيه»[٣] .

فنستنتج من كلّ ما تقدّم أنّ علياً عليه السلام كان يكتب الوحي في كلّ مرّةٍ

(١) كتاب سليم بن قيس الكوفي : ٢١١ ، الاحتجاج للطبرسي ١/٢٢٣ .
(٢) مقدّمة (تفسير مرآة الأنوار) عن أبي خالد الواسطي عن زيد بن عليّ .
(٣) كتاب سليم بن قيس : ١٧١ .

ينزل فيه، وكان يحفظ آياته عن ظهر قلب، وكان يدوّن القرآن مع هامش يذكر فيه العامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد والمجمل والمبيّن والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والرخص والعزائم والآداب والسنن.

قال الرافعي في **إعجاز القرآن**: «واتفقوا على أنّ من كتب القرآن وأكمله وكان قرآنه أصلاً للقرآنات المتأخّرة: عليّ بن أبي طالب، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود»[1].

وبذلك فلم يكن عليٌّ عليه السلام وحده كاتباً للوحي، بل كان معه آخرون ممّن كتبوا الوحي بدقّة، وفي ذلك نكتة مهمّة وخطيرة نتعرّض لها بعد قليل.

٢ ـ كتّابٌ آخرون:

كتب القرآن المجيد بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أفرادٌ آخرون بجانب عليٍّ عليه السلام، منهم: زيد بن ثابت، وأُبيّ بن كعب الأنصاري، وعثمان بن عفّان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

والكتابة في ذاتها ليست منقبة إذا لم تكن نابعة من الإيمان بقيمة المكتوب وقداسته، فهذا عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان من الرضاعة نزلت فيه آية: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ...**﴾[2]، فعندما أسلم عبد الله بن أبي سرح «قدم المدينة، وكان له خطٌّ حسن، وكان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه فكتب ما

(١) إعجاز القرآن: ٣٥.

(٢) سورة الأنعام ٦: ٩٣.

يمليه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان إذا قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: سميع بصير، يكتب: سميع عليم. وإذا قال له: والله بما تعملون خبير، يكتب: بصير. ويفرّق بين التاء والياء. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: هو واحد. فارتدّ كافراً ورجع إلى مكّة وقال لقريش: والله ما يدري محمّد ما يقول، أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر عليٌّ ذلك وأنا أُنزل مثل ما ينزل. فأنزل الله على نبيّه صلى الله عليه وآله في ذلك: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ...**﴾[1].

فلمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة أمر بقتله. فجاء به عثمان بن عفّان فأخذ بيده ـ ورسول الله في المسجد ـ فقال: يا رسول الله اعفو عنه، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ أعاد، فسكت، ثمّ أعاد، فقال: هو لك، فلمّا مرّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال رجل: عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ بقتله فأقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الأنبياء لا يقتلون بالإشارة. فكان من الطلقاء[2].

ثمّ أورد عن **معاني الأخبار** حديثاً قال الصدوق في ذيله: «وإنّما كان النبيّ صلى الله عليه وآله يقول له فيما يغيره: هو واحد. لأنّه لا ينكتب ما يريد عبد الله بن أبي سرح إنّما ينكتب ما كان يمليه صلى الله عليه وآله، فقال صلى الله عليه وآله: هو واحد غيّرت أم لم تغيّر لم ينكتب ما تكتبه بل ينكتب ما أُمليه عن الوحي وجبرئيل يصلحه. وفي ذلك دلالة للنبيّ صلى الله عليه وآله على صدق نبوّته.

وقال الصدوق: ووجه الحكمة في استكتاب النبيّ صلى الله عليه وآله الوحي

(١) سورة الأنعام ٦: ٩٣.

(٢) بحار الأنوار ـ الطبعة القديمة ـ ١٩/ باب ٣. وتفسير القمّي ١/٢١٠ في تفسيره لسورة الأنعام ٦: ٩٣.

معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وهما عدوّان هو أنّ المشركين قالوا: إنّ محمّداً يقول هذا القرآن من تلقاء نفسه ويأتي في كلّ حادثة بآية ... إلىٰ أن قال: فاستعان في كتب ما ينزل عليه في الحوادث الواقعة بعدوّين له في دينه عدلين عند أعدائه ليعلم الكفّار والمشركون أنّ كلامه في ثاني الأمر كلامه في الأوّل غير مغيّر ولا يزال عن جهة فيكون أبلغ للحجّة عليهم، ولو استعان بوليّين مثل سلمان وأبي ذر وأشباههما لكان الأمر عند أعدائه غير واقع هذا الموقع وكان يتخيّل فيه التواطي والتطابق، فهذا هو وجه الحكمة في استكتابهما»[1].

٣ ـ العلّة في تعدّد كتّاب الوحي:

وكانت العلّة الرئيسية في تعدّد كتّاب الوحي هو أن لا تختلف الأُمّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في قضية القرآن كما اختلفت في قضية الولاية الشرعية والإمامة، وقد وعد الله سبحانه وتعالىٰ بحفظه من كلّ تحريف كما نستظهر من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب بدلالة نصّ القرآن المجيد: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالأِنْجِيلِ ...﴾[3]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[4]. وكان صلى الله عليه وآله

(١) معاني الأخبار: ٣٤٧ ذيل الحديث ١.
(٢) سورة الحجر ١٥: ٩.
(٣) سورة الاعراف ٧: ١٥٧.
(٤) سورة العنكبوت ٢٩: ٤٨.

لا يستطيع كتابة ما ينزل إليه من وحي، بل كان بعد نزول الوحي إليه يحفظ القرآن النازل من آية أو سورة ويبلّغها الناس، ثمّ يُقري عليّاً عليه السلام ونخبة من الفائزين بشرف صحبته صلى الله عليه وآله ويستحفظهم إيّاها.

وكانوا إذا نقلوا عن النبيّ صلى الله عليه وآله شيئاً من القرآن تردّدوا عليه غير مرّة يتلونها أمامه حتّىٰ يزداد تثبّتهم من حفظها، ثمّ يذهبون وعلىٰ رأسهم عليّ عليه السلام فيكتبونها ثمّ يعلّمون الناس الآيات الجديدة النازلة عليه صلى الله عليه وآله.

وبسبب تعدّد كتّاب الوحي فقد حُفظ القرآن الكريم من التحريف والتزييف، وقد كانت كلّ العوامل الاجتماعية خلال القرن الأوّل الهجري مهيّأةً للتلاعب بالكتاب الكريم، ولكن وعد الله تعالىٰ بحفظه جنّب الأُمّة تلك الجناية العظمىٰ، وكان تعدّد كتّاب الوحي من العوامل التي حفظت القرآن.

٤ ـ فنّية كتابة القرآن:

ومن شدّة اهتمام النبيّ صلى الله عليه وآله بكتابة القرآن الذي كتب في عهده وفي حضرته أنّه كان يُنسَخ علىٰ الصحف. وفي رواية إسلام عمر بن الخطّاب دلالة بليغة علىٰ ذلك: «قال له رجل من قريش: إنّ أختك قد صبأت (أي خرجت عن دينك) فذهب إلىٰ بيتها ولطم أُخته لطمة شجّ بها وجهها، فلمّا سكت عنه الغضب نظر فإذا صحيفة في ناحية البيت فيها: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ... إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾[1]، واطّلع علىٰ صحيفة أُخرىٰ فوجد

(١) سورة الحديد ٥٧: ١ ـ ٨.

فيها: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ... لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1]»[2].

وإذا صحّت هذه الرواية فهذا يعني أنّ القرآن كان متداولاً بين المسلمين مستنسخاً على شكل صحف.

وإذا كانت العرب زمن الجاهلية قد اهتمّت بكتابة الشعر ووضعه على جدران الكعبة المشرّفة كالمعلّقات السبعة فهل يصحّ أنّ رسول الله ﷺ لم يهتمّ بكتابة القرآن الكريم وهو الكتاب السماوي الذي بحفظه مصوناً بين الدفّتين يتمّ حفظ الدين إلى يوم القيامة؟!

وكان عليّ عليه السلام يكتب القرآن على جرائد النخل وأكتاف الإبل والصحف والحرير والقراطيس وما تيسّر من أدواتٍ للكتابة والتصحيف، وكان ﷺ يأمره بوضع الآيات في مواضعها في القرآن. وبكلمة، فإنّ نصّ القرآن وترتيبه كان أمراً توقيفيّاً منه ﷺ بأمر الوحي.

فقد روى العيّاشي (ت ٣٢٠ هـ) ـ وهو من كبار محدّثي الإمامية ـ في تفسيره في ذيل رواية له: «قال علي عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ أوصاني إذا واريته في حفرته أن لا أخرج من بيتي حتّى أُؤلّف كتاب الله، فإنّه في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل»[3].

وفي رواية عليّ بن إبراهيم (ت ٣٠٧ هـ) ـ وهو من ثقات المحدّثين ـ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: يا عليّ إنّ القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير

(١) سورة طه ٢٠: ١ ـ ٨.
(٢) أسد الغابة ٥٤/٤ (ترجمة عمر بن الخطّاب).
(٣) تفسير العيّاشي ٦٦/٢ ضمن الحديث ٧٦.

والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة، وانطلق عليّ عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثمّ ختم عليه»[1].

وما روي أنّ عليّاً عليه السلام قد جمع القرآن بعد وفاة النبيّ ﷺ مباشرةً يُردّ عليه بأنّه لم يكن جمعاً اصطلاحيّاً بل أمر تدقيق وحفظ وصيانة وعناية.

ففي كتاب **سليم بن قيس** عن سلمان رضي الله عنه: «إنّ علياً عليه السلام بعد وفاة النبيّ ﷺ لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلّفه ويجمعه... وكان في الصحف والشظاظ[2] والأسيار[3] والرقاع... إلى أن قال: فجمعه في ثوب واحد وختمه»[4].

وقد أوصى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام: «يا عليّ هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه عليّ عليه السلام في ثوب ومضى إلى منزله، فلمّا قبض النبيّ ﷺ جلس عليه السلام فألّفه كما أنزل الله وكان به عالماً»[5].

ومعنى التأليف: الجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[6].

والخلاصة: إنّ علياً عليه السلام كان قد كتب القرآن الكريم في حياة

(١) تفسير القمّي ٤٥١/٢ (سورة الناس) رواها عن أبي بكر الحضرمي عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٢) شظاظ: خشبة عقفاء تدخل في عروتي الجوالق (الوعاء).
(٣) السيار: مجمع السير وهو القدّة المستطيلة من الجلد. والقدُّ هو جلد المعز المشقوق طولاً.
(٤) كتاب سليم بن قيس: ٦٥.
(٥) مناقب ابن شهرآشوب ٣١٩/١ (باب درجات أمير المؤمنين عليه السلام، فصل في المسابقة بالعلم).
(٦) سورة آل عمران ٣: ١٠٣.

رسول الله ﷺ آية آية، وكان يُعرض ذلك عليه ﷺ فيُمضيه، وكان على الإمام عليه السلام بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقوم بجمع تلك الصحف وتدقيقها من أجل الاطمئنان على سلامتها، مصداقاً لوعده تعالى بحفظ الكتاب المجيد من التلاعب والتزييف.

صيانة القرآن :

ذكرنا آنفاً أنّ علياً عليه السلام مع كتابٍ آخرين كتبوا القرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ في صحف وبأمر منه ﷺ مباشرة، ثمّ قام عليٌّ عليه السلام بعد وفاة رسول الله ﷺ بتدقيق الصحف المكتوبة على الجلود والأقتاب.

نقل السيوطي في **الاتقان** عن ابن حجر :

«إنّه قد ورد عن عليٍّ عليه السلام أنّه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبيِّ ﷺ[1]، أخرجه ابن أبي داود.

وفي **شرح الكافي** للمولى صالح القزويني عن كتاب **سليم بن قيس** بعد أن ذكرَ جمْعَ عليٍّ عليه السلام القرآن في ثلاثة أيّام، قال: «فلم يخرج من بيته حتّى جمعه كلّه... وكتبه بيده على تنزيله الناسخ والمنسوخ منه والمحكم والمتشابه»[2].

والمستفاد من ذلك أنّ مكوث عليٍّ عليه السلام في بيته ثلاثة أيّام[3] كان من

(١) الإتقان ١ / ٩٥، فتح الباري ٩/٤٧ باب القرّاء من أصحاب رسول الله ﷺ.
(٢) كتاب سليم بن قيس : ١٤٦.
(٣) قال ابن النديم في (الفهرست) : قال ابن المنادي : حدّثني الحسن بن العبّاس قال : أخبرت عن عبد الرحمن بن أبي حمّاد عن الحكم بن ظهير السدوسي عن عبد خير عن عليٍّ عليه السلام أنّه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبيِّ ﷺ فأقسم أن لا يضع عن ظهره رداءه حتّى يجمع القرآن. فجلس في بيته ثلاثة أيّام حتّى جمع القرآن.

أجل التأكّد من وجود القرآن مكتوباً بكامله، فيكون الأمر من قبيل مراجعة نصوص القرآن المجيد، وإلّا فإنّه لو لم يكن مكتوباً لتعذّرت كتابته في تلك الفترة القصيرة.

وبعد أن أشار الشيخ المفيد (ت٤١٣ هـ) في أثره **المسائل السروية**[1] بأنّ علياً عليه السلام قدّم في مصحفه المنسوخ على الناسخ قال: «وكتب فيه تأويل بعض الآيات وتفسيرها بالتفصيل».

وأورد مسلم أنّ علياً عليه السلام قد جمع القرآن المنزل من أوّله إلى آخره وألّفه على حسب النزول، فقدّم المكّي على المدني والمنسوخ على الناسخ، وأضاف شرحاً وتفسيراً بما يناسبه، وذكر فيه بيان المحكم والمتشابه والسبب في النزول[2].

وإذا كان جمع القرآن حسب النزول فهذا يعني أن يبتدئ بسورة العلق إلى آخر ما نزل من القرآن على اختلاف الروايات، ولم نعثر على نسخة خطّية للقرآن الكريم بهذا المعنى. قال ابن سيرين: «لو أصبتُ ذلك الكتاب كان فيه العلم»[3].

وإذا لم يكن ابن سيرين قادراً على اقتناء ذلك الكتاب أو رؤيته فكيف بنا وقد ابتعدنا عن ذلك العصر أكثر من أربعة عشر قرناً ؟!

يقول الشهرستاني في مقدّمة تفسيره: «كان الصحابة متّفقين على أنّ

(١) انظر : المسائل السروية : ٧٩ المسألة التاسعة.
(٢) لم نعثر عليه ولكن انظر : الاستذكار ٢/٤٨٥، وفتح الباري ٩/٣٨.
(٣) مؤلّفوا الشيعة : ١٣.

علم القرآن مخصوص لأهل البيت عليهم السلام ، إذ كانوا يسألون عليّ بن أبي طالب عليه السلام : هل خصصتم أهل البيت دوننا بشيءٍ سوىٰ القرآن ؟»[١] .

فاستثناء القرآن بالتخصيص دليل علىٰ إجماعهم بأنّ علوم القرآن مخصوصة بهم عليهم السلام .

ومع كلّ ذلك فقد حُذف اسم عليٍّ عليه السلام من باب جمع القرآن من مصادر مدرسة الصحابة عدا ما شذّ .

فقال البخاري فيمن جمع القرآن علىٰ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله : «أُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد» .

وروىٰ في موضع آخر مكان أبيّ بن كعب : أبا الدرداء[٢] .

وقال السيوطي في **الاتقان** نقلاً عن ابن أبي داود بسند حسن : «إنّهم خمسة : معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبيّ بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيّوب الأنصاري» .

وعن ابن سيرين أنّهم أربعة : معاذ ، وأُبيّ ، وأبو زيد ، وأبو الدرداء أو عثمان أو هو مع تميم الداري .

وخرّج البيهقي وابن أبي داود عن الشعبي أنّهم ستّة : أبيّ ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ ، وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد ، وأبو زيد ، ومجمع بن جارية[٣] .

نعم قد أنصف صاحب **الفهرس** محمّد بن إسحاق (ابن النديم)

(١) مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار : المقدّمة .
(٢) صحيح البخاري ١٠٣/٦ باب القرّاء من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله .
(٣) الإتقان في علوم القرآن ١٩٥/١ رقم ٩٨٥ ـ ٩٨٧ .

فساق اسم عليٍّ عليه السلام فيمن جمعوا القرآن[١] .

وكذلك فعل الخوارزمي في مناقبه فقال : «جمع القرآن علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله : عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وأبيّ بن كعب»[٢] .

ولكن علماؤنا اتّفقوا علىٰ أنّ علياً عليه السلام هو أوّل من جمع القرآن وقام بتدقيقه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . والمشهور في مدرسة الصحابة أنّه تأخّر عن بيعة أبي بكر انشغالاً او تشاغلاً بالقرآن .

قال السيّد شرف الدين : «الاجماع قائم علىٰ أن ليس لهم في العصر الأوّل تأليف أصلاً ، وأمّا عليّ عليه السلام وخاصّته فإنّهم تصدّوا لذلك في القرن الأوّل ، وأوّل شيءٍ سجّله أمير المؤمنين عليه السلام كتاب الله العزيز ، فإنّه بعد الفراغ من أمر النبيّ صلى الله عليه وآله آلىٰ علىٰ نفسه أن لا يرتدي إلّا للصلاة أو يجمعه ، فجمعه مرتّباً علىٰ حسب ترتيبه في النزول ، وأشار إلىٰ عامّه وخاصّه ومطلقه ومقيّده ومجمله ومبيّنه ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه وآدابه وسننه ، ونبّه علىٰ أسباب النزول في آياته البيّنات ، وأوضح ما عساه يشكل من بعض الجهات»[٣] .

آثار صيانة الإمام عليه السلام للقرآن :

وكانت صيانة القرآن الكريم والاعتناء بسلامته من كلّ تحريف من مهمّات الإمام عليّ عليه السلام الرئيسية ، فهو وإن تألّم لما آلت إليه أوضاع المسلمين بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا أنّه لم يألُ جهداً في الحفاظ علىٰ كتاب

(١) الفهرس لابن النديم : ٥٧ .
(٢) المناقب للخوارزمي : ٩٣ ح ٩١ .
(٣) المراجعات : ٤١١ المراجعة ١١٠ .

الله المجيد مصوناً بين الدفّتين، وكان له عليه السلام ذلك، فقد بقي القرآن الكريم محفوظاً طبقاً للوعد الإلهي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

١ ـ شخصيّة عليٍّ عليه السلام والقرآن الكريم:

ويؤيّد اهتمام عليٍّ عليه السلام بجمع القرآن الكريم زمن رسول الله صلى الله عليه وآله المساجلة بينه عليه السلام وبين طلحة.

«قال طلحة: ما أراك يا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتك عنه من القرآن ألا تظهره للنّاس؟ قال عليه السلام: يا طلحة عمداً كففتُ عن جوابك، فأخبرني عمّا كتب عمر وعثمان أقرآن كلّه أم فيه ما ليس بقرآن؟ قال طلحة: بل قرآن كلّه. قال عليه السلام: إن أخذتم بما فيه نجوتم من النّار ودخلتم الجنّة...»[2].

ووجه الدلالة أنّ علياً عليه السلام كان يخشىٰ أن تترك الثقافة الاجتماعية التي تربّىٰ عليها البعض من الذين أسلموا لاحقاً آثارها علىٰ القرآن، ولكن عندما اطمأنّ إلىٰ صحّة جمعه قال: إن أخذتم بما فيه نجوتم من النّار. وهذا دليل علىٰ أنّ القرآن محفوظ بين الدفّتين لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف.

وشخصيّة كعليٍّ عليه السلام اهتمّت بالقرآن منذ نزوله تعلم أنّ المخرج من الفتن هو كتاب الله، فهو القائل عليه السلام عندما سُئل بأنّ أناساً يخوضون في الأحاديث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما إنّي قد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ستكون بعدي فتن، قلتُ: وما المخرج منها؟

(١) سورة الحجر ١٥: ٩.
(٢) كتاب (سليم بن قيس): ١٠٠.

قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبّار قصمه الله ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلّه الله، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم ينته الجنّ إذ سمعته أن قالوا: إنّا سمعنا قرآناً عجباً، هو الذي من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أُجر ومن دعا إليه هدي إلىٰ صراطٍ مستقيم»[1].

وقوله صلى الله عليه وآله: «هو الذي من تركه من جبّار قصمه الله» فيه دلالة علىٰ أنّ ترك العمل بالقرآن الكريم وأحكامه يكون فيه هلاك الجبّارين. وقوله صلى الله عليه وآله: «وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة» يعني أنّ الأهواء لا تستطيع أن تغيّر معاني القرآن وألفاظه، فالقرآن هو الفصل والحكم العدل بين الحقّ والباطل.

وقريبٌ منه قول أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن: «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً[2] لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تخشىٰ أسقامه، وعزّاً لا تهزم أنصاره، وحقّاً لا تخذل أعوانه؛ فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع

(١) سنن الدارمي ـ كتاب فضائل القرآن ٤٣٥/٢. وبحار الأنوار ٧/٩ عن تفسير العيّاشي. رواه الحارث الهمداني وهو من أعاظم أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأفقههم.
(٢) في (بحار الانوار): وبنياناً.

العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ[١] الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمىٰ عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون؛ جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدىً لمن ائتمّ به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلْجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّةً لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجُنّةً لمن استلأم، وعلماً لمن وعىٰ، وحديثاً لمن روىٰ وحكماً لمن قضىٰ»[٢].

وهذه المعاني الجليلة تحتاج شيئاً من التدبّر. فقوله عليه السلام: «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه...» أي لا تنتهي معانيه، فإنّ موارد النزول لا تخصّص الوارد، بل إنّ معانيه عامّة تنطبق على كل زمان ومكان. وقوله عليه السلام: «ومنهاجاً لا يضلّ نهجه» أي إنّه كتاب هداية ورحمة للعباد. وقوله عليه السلام: «وينابيع العلم وبحوره» يعني أنّ مصادر العلم التي تحتاجها الأمّة في سيرها المتواصل نحو الكمال قد اجتمعت في القرآن.

٢ ـ المصحف الحقّ المحفوظ بين الدفّتين:

وعلىٰ أيّ تقدير فقد بقي القرآن الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام هو

(١) الأثافيّ: كأمانيّ جمع أثفية ـ بالضمّ والكسر: وهي الحجارة التي يوضع عليها القدر.

(٢) نهج البلاغة: ٣٩٧ خطبة ١٩٨.

المصحف الحقّ الذي حفظ ما بين الدفّتين وكان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]. وهناك دليلان علىٰ ذلك:

الأوّل: ما رواه ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) في كتاب **سعد السعود** نقلاً عن كتاب أبي جعفر محمّد بن منصور ورواية محمّد بن زيد بن مروان في اختلاف المصاحف: «إنّ القرآن جمعه علىٰ عهد أبي بكر زيد بن ثابت وخالفه في ذلك أبيّ وعبد الله بن مسعود وسالم مولىٰ أبي حذيفة، ثمّ عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأخذ عثمان مصاحف أُبيّ وعبد الله بن مسعود وسالم مولىٰ أبي حذيفة فغسلها [وفي بعض النسخ: فاحرقها]، وكتب عثمان مصحفاً لنفسه ومصحفاً لأهل المدينة ومصحفاً لأهل مكّة ومصحفاً لأهل الكوفة ومصحفاً لأهل البصرة ومصحفاً لأهل الشّام»[٢].

الثاني: ما ذكره الشهرستاني في مقدّمة تفسيره برواية سويد بن علقمة، قال: «سمعتُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: أيّها الناس الله الله إيّاكم والغلوّ في أمر عثمان وقولكم حرّاق المصاحف، فوالله ما حرّقها إلّا عن ملأ منّا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، جمعنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها؟ يلقىٰ الرجلُ الرجلَ فيقول: قراءتي خيرٌ من قراءتك، وهذا يجرّ إلىٰ الكفر. فقلنا بالرأي. قال: أريد أن أجمع الناس علىٰ مصحف واحد فإنّكم إن اختلفتم اليوم كان مَن بعدكم أشدّ اختلافاً، فقلنا: نعمّ ما رأيت. فأرسل إلىٰ زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، قال: يكتب أحدكما ويُملي الآخر. فلم يختلفا في شيءٍ إلّا في حرف واحد...

(١) سورة الحجر ١٥: ٩.

(٢) سعد السعود: ٢٧٨.

واختار قراءة زيد بن ثابت لأنّه كتب الوحي»[١].

وفيما ذكره الشهرستاني دلالات:

١ ـ إنّ عليّاً عليه السلام كان شاهداً ومشرفاً على كتابة القرآن في عهد عثمان، ولذلك فقد فصّل في طبيعة الكتابة والإملاء والأخذ بقراءة زيد بن ثابت.

٢ ـ إنّ عليّاً عليه السلام أكّد أنّ زيد بن ثابت كان كاتباً للوحي كما كان أمير المؤمنين عليه السلام ذاته، وقد كان اختياره لكتابة الوحي مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى لا تختلف الأُمّة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن كما اختلفت في ولاية أهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا ذلك سابقاً.

٣ ـ تلاميذ الإمام عليه السلام:

وذكر ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ) في **سعد السعود** أنّه اشتهر بين أهل الإسلام أنّ ابن عبّاس كان تلميذ عليّ عليه السلام.

وذكر محمّد بن عمر الرازي في كتاب **الأربعين** أنّ ابن عبّاس رئيس المفسّرين كان تلميذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٢].

وكان للإمام عليه السلام تلميذ آخر هو أبو الأسود الدُّؤلي الذي تعلّم أصول النحو من أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كانت العرب في البادية تنطق بكلام فصيح وتنشد أشعاراً بليغة وتفقه فصاحة القرآن وبلاغته الإعجازية ولكن اختلاط الأُمم الأُخرى بالعرب أبرزت اللحن على لسان الفصحاء من العرب، ولذلك أشار الإمام عليه السلام على الدؤلي بكتابة النحو حفظاً على سلامة

(١) مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار: المقدّمة.

(٢) سعد السعود: ٢٦٦ (رأي الفرّاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾).

القرآن وصيانته. قيل للدؤلي: من أين لك هذا العلم ـ يعنون النحو ـ؟ فقال: لقّنتُ حدوده من عليّ عليه السلام[١].

وكان للدؤلي تلاميذ في علم النحو، منهم: يحيى بن يعمر العدواني قاضي خراسان ونصر بن عاصم الليثي، وهما اللذان وضعا النقط أفراداً وأزواجاً لتمييز الأحرف المتشابهة بالأسلوب الذي نتداوله اليوم وهو ما يسمّى بالإعجام، فقد بات صعباً على القارئ التمييز بين ﴿نُنْشِزُهَا﴾[٢] بالراء المعجمة أو (ننشرها) بالراء المهملة، أو ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[٣] بالفاء أو (لمن خلقك) بالقاف.

أمّا أبو الأسود الدؤلي فقد قام بإعراب القرآن بعد أن سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٤] بجرّ اللام من كلمة (رسوله)، فأعظم أبو الأسود ذلك وقال: عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله. فأمر كاتباً من الكتّاب وقال له: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين الحرف، فإن تبعت شيئاً من هذه الحركات غنّة[٥] فانقط نقطتين. وأخذ يقرأ القرآن بالتأنّي والكاتب يضع النقط، وكلّما أتمّ الكاتب صحيفةً أعاد أبو الأسود نظره عليها، واستمرّ على ذلك حتّى أعرب المصحف كلّه، وجرى الناس على

(١) وفيات الأعيان ١/٢٤٠.

(٢) سورة البقرة ٢: ٢٥٩.

(٣) سورة يونس ١٠: ٩٢.

(٤) سورة التوبة ٩: ٣.

(٥) الغنّة: مخصوصة بحرفي: ن، م. وهي عملية تلفّظ لكلمات يمرّ فيها الصوت بالأنف، مثل: إنَّ، أنعمتَ، منهم، ممّا.

طريقته[١]. وكانت الحركات تُكتب بلون مختلف، فالسواد للحروف والحمرة للأشكال أو الحركات بطريقة النقط.

وبكلمة، فإنّ عليّاً عليه السلام لم يألُ جهداً في حفظ القرآن وصيانته، فقد جهد في صيانة القرآن المجيد عن طريق الكتابة المباشرة وجمع السور والآيات المتفرّقة وترتيب القرآن ووضع قواعد النحو من أجل أن لا يختلط على الناس فوضع الإعراب والإعجام[٢]، وعلّم الناس تفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، وكان من قبل قد قاتل المشركين ثمّ قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين من بعد، من أجل أن يبقى القرآن محفوظاً بين الدفّتين إلى يوم القيامة.

القرآن ومبدأ الرجوع إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام :

كان الصحابة والتابعون يرجعون إلى الإمام عليّ عليه السلام في ضبط قراءة القرآن الكريم وفهم معانيه، ونذكر منهم بالخصوص عبد الله بن عبّاس وعبد الله بن مسعود.

لقد نزل القرآن الكريم ببيان عربيٍّ مبين يأخذ بألباب الناس ويفتح قلوبهم للنور، وكان الإنسان من جزيرة العرب إذا سمع القرآن شرح الله صدره للإسلام. والأغلب أنّه كان هناك فهم إجماليٌّ عامٌّ لمعاني القرآن الكريم ومقاصده، ولكن مع ذلك الفهم الإجمالي كان من الناس زمن النزول من لم يدرك النصوص القرآنية ولم يستوعب معانيها العظيمة،

(١) تاريخ القرآن : ٩٦.

(٢) الإعراب هو وصل الخطّ مضبوطاً بالحركات والسكنات. والإعجام هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس.

خصوصاً وإنّ المعنى القرآني يحتمل وجوهاً عديدة لنفس النصّ، لذلك كان النبي صلى الله عليه وآله عندما يُسأل عن معنى الآية يُجيب السائل، وكان صلى الله عليه وآله مأموراً بذلك بنصّ القرآن: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[١].

وفي مقابل ذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله يعلّم عليّاً عليه السلام معاني القرآن الكريم وتفسيره وتأويله، فلا عجب أن نسمع البخاري ينقل في صحيحه في باب قوله تعالى: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...** ﴾[٢] بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس حديثاً عن عمر قال: «وأقضانا عليّ ...»[٣].

وينقل ابن ماجة في صحيحه حديثاً بسندين عن أنس بن مالك قال فيه: «إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: وأقضاهم علي بن أبي طالب»[٤].

و(أقضاهم) في لغة العرب هو أعلمهم في طبيعة الفصل بين الحقّ والباطل.

ويروي أبو نعيم في **الحلية** عن ابن مسعود قال: «إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلّا له ظهر وبطن، وإنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن»[٥].

ولا شكّ أنّ القرآن كان المحور الأساس في استفهام المسلمين عن معاني العقيدة والتشريع، ويؤيّد ذلك رواية عن سُليم بن قيس الهلالي قال: «قلتُ لأمير المؤمنين عليه السلام: إنّي سمعتُ من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً

(١) سورة النحل ١٦ : ٤٤.

(٢) سورة البقرة ٢ : ١٠٦.

(٣) فضائل الخمسة ٢/٢٩٦.

(٤) صحيح ابن ماجة ١/٥٥ ح ١٥٢.

(٥) حلية الأولياء ١/٦٥.

من تفسير القرآن وأحاديث عن النبيّ ﷺ غير ما في أيدي الناس ثمّ سمعتُ منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله ﷺ أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون بأنّ ذلك كلّه باطل، أفترىٰ الناس يكذبون علىٰ رسول الله ﷺ متعمّدين ويفسّرون القرآن بآرائهم ؟ قال: فأقبل عليّ وقال: قد سألتَ فافهم الجواب: إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وحفظاً ووهماً، وقد كذب علىٰ رسول الله ﷺ علىٰ عهده حتّىٰ قام خطيباً فقال: أيّها الناس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار. ثم كُذب عليه من بعد، وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس:

رجل منافق يظهر الإيمان متصنّع بالإسلام لا يتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب علىٰ رسول الله ﷺ متعمّداً، فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه ولكنّهم قالوا: هذا صحبَ رسول الله ورآه وسمع منه، وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عزّوجلّ: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾[1].

ورجل سمع من رسول الله ﷺ فلم يحفظه علىٰ وجهه ووَهَمَ فيه ولم يتعمّد كذباً، فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه، فيقول: أنا سمعت من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنّه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثمّ نهىٰ عنه وهو

(١) سورة المنافقون ٦٣ : ٤.

يعلم، أو سمعه ينهىٰ عن شيءٍ ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، ولو علم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب علىٰ رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله ﷺ، لم ينسه بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلمَ الناسخ من المنسوخ، فعملَ بالناسخ ورفض المنسوخ، فإنّ أمر النبيّ ﷺ مثل القرآن ناسخ ومنسوخ وخاصٌّ وعامٌّ ومحكم ومتشابه، قد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان كلام عامّ وكلام خاصّ مثل القرآن.

وقال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[1]، فيشتبه علىٰ من لم يعرف ولم يدرِ ما عنىٰ الله به ورسوله.

وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله عن الشيءِ فيفهم، وكان منهم من لا يسأله ولا يستفهمه، حتّىٰ أنّهم كانوا يحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأل رسول الله ﷺ حتّىٰ يسمعوا.

وقد كنتُ أدخل علىٰ رسول الله ﷺ كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة فيخلّيني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عني نساءه فلا يبقىٰ عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي

(١) سورة الحشر ٥٩ : ٧.

فاطمة عليها السلام ولا أحد من بنيّي، وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتُ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني...»[١].

لقد أمضى رسول الله صلى الله عليه وآله علم الإمام علي عليه السلام بالقرآن في الروايات التالية:

١ ـ على ما رواه الحاكم في **المستدرك**، قال صلى الله عليه وآله: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليٍّ ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض»[٢].

٢ ـ ما رواه الحاكم في **المستدرك** أيضاً، قال صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد المدينة فليأتِ الباب»[٣].

٣ ـ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليٍّ عليه السلام: «أنت تبيّن لأمّتي ما اختلفوا فيه بعدي»[٤].

٤ ـ ما رواه الترمذي في صحيحه بسنده عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن ثابت عن زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٥].

والمروي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثتكم، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلّا أنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهارٍ أم في سهل نزلت أم

(١) الأصول من الكافي ٦٤/١ باب اختلاف الحديث ح ١.
(٢) المستدرك ١٢٤/٣.
(٣) المستدرك ١٢٦/٣.
(٤) المستدرك ١٢٢/٣.
(٥) صحيح الترمذي ٣٠٨/٢.

في جبل...»[١].

وجاءت الأحداث السياسية التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله لتبعد أئمّة أهل بيت النبوّة عليهم السلام عن موقع القيادة الظاهرية للأمّة الإسلامية، وبذلك انفتح باب الرأي والاستحسان في قضايا فهم القرآن، وأصبحت المعرفة التفسيرية تتأرجح بين التفسير بالمأثور الصحيح أو التفسير بالرأي والمصالح المرسلة والاستحسان.

والفارقة التأريخية أنّنا قرأنا للتوّ أنّ عليّاً عليه السلام كان أفقه الصحابة بالقرآن وأقضاهم، مع أنّك لو بحثت بإنصاف ما وجدت ممّا رواه عليّ بن طالب عليه السلام في كتب الأخبار من مدرسة الحديث إلّا النادر، فأين ذهبت أحاديث باب مدينة العلم في الوقت الذي تجد فيه اشخاصاً لم يصحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله عشر أعشار صحبة الإمام عليٍّ عليه السلام له صلى الله عليه وآله تملأ رواياتهم كتب الصحاح كأبي هريرة وغيره؟!

وفي هذا المقام لابدّ أن نؤكّد على النقاط التالية:

١ ـ إنّ القرآن المجيد الذي نقرأه اليوم هو نفس المصحف الذي أنزله الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبه أمير المؤمنين عليه السلام بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وأمضاه لاحقاً الخليفة الثالث أو الثاني حسب لون الروايات المتداولة في مدرسة الحديث والرأي، ومن يزعم أنّ عند المدرسة الإمامية قرآناً آخر فهو يخالف من دون أن يشعر أمر الله تعالى الذي وعد بحفظ القرآن الكريم: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٢].

٢ ـ إنّ القرآن الكريم هو المرجع الأوّل والمصدر الأساس عند الشيعة

(١) كنز العمّال ٢٢٨/١.
(٢) سورة الحجر ١٥: ٩.

الإمامية كغيرهم من المسلمين، وما أكّده أئمّة أهل البيت عليهم السلام على أهمّية سلوك طريق العلم والمنهج العلمي لفهم القرآن هو الذي دفع علماء الإمامية إلى الاهتمام بتفسير القرآن المجيد على مدى القرون الطويلة الماضية، ولا شكّ أنّ المنهج العلمي مستوحىً من القرآن الكريم ذاته، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[1]، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2].

٣ ـ إنّ تفسير القرآن الكريم في المدرسة الإمامية له ضوابط وأصول، مثل القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، والورع، والضبط، والاستيعاب، ومعرفة الرجال وطرق الإسناد، وإدراك أصول الحديث وقواعده، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبيّن، والمحكم والمتشابه، واستيعاب سيرة أهل بيت النبوّة عليهم السلام وأقوالهم وإمضاءاتهم.

❀ ❀ ❀

(١) سورة يونس ١٠ : ٣٦.
(٢) سورة الإسراء ١٧ : ٣٦.

الفصل الثاني
المدارس التفسيرية في التاريخ الإمامي
منذ القرن الرابع وحتّى فجر القرن الخامس عشر الهجري

مقدّمة:

القرآن الكريم كتاب الله المجيد والحبل الممدود من السماء إلى الأرض، وهو أكبر الثقلين الذين أوصى بهما رسول الله صلى الله عليه وآله. وأوّل من تمسّك بالقرآن بعد النبيّ صلى الله عليه وآله أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وصدرت تعليماتهم بذلك فقالوا وهم في مقام مخاطبة المؤمنين: «تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنّه أنفع القصص»[1].

وصرّح أمير المؤمنين عليه السلام في قضيّة التحكيم بأنّ العمل بهذا القرآن موقوف على تفسيره وكشف المراد منه، فقال: «هذا القرآن إنّما هو خطّ مسطور بين الدفّتين لا ينطق بلسان ولابدّ له من ترجمانٍ وإنّما ينطق عنه الرجال»[2].

وإذا كان كتاب الله المرشد الصامت فإنّه يحتاج إلى لسان وترجمان يقوم بكشف مراده، فلم يكن هناك مفرٌّ من أن يقوم العارفون بالمراد من بيانه والكشف عنه، وهذا البيان هو (التفسير).

(١) نهج البلاغة ١/٢١٥.
(٢) الإرشاد ١/٢٧١، مناقب آل أبي طالب ٢/٣٧٠، تاريخ الطبري ٤/٤٨.

قال مصنّف **القاموس** : «الفسر : الإبانة وكشف المغطّىٰ كالتفسير»[١] .

وقال مصنّف **مجمع البحرين** : «التفسير في اللغة كشف معنىٰ اللفظ وإظهاره ، مأخوذ من الفسر وهو مقلوب السفر ، يقال : أسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته»[٢] .

فالمراد من التفسير إذن هو بيان ظواهر الآيات القرآنية علىٰ مبنىٰ لغة العرب .

وقد مدح القرآن الكريم قوماً استنبطوا ظواهر ألفاظ القرآن فقال : ﴿ **لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[٣] ، وذمّ آخرين لم يتدبّروا في القرآن ولم يدركوا معناه ، فقال : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾[٤] .

ولكن نزول القرآن بلغة العرب واستخدامه الحقيقة والمجاز والكناية لا يعني أنّ كلّ من يتكلّم العربية قد يدرك معاني القرآن ، بل أنّ في القرآن المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ، وقد منعنا القرآن الكريم من الحكم علىٰ حجّية جميع ظواهر الكتاب المجيد ، فقال : ﴿ **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرَ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ . . .** ﴾[٥] .

فالمحكمات هنّ أُمّ الكتاب والحجّة التي يرجع إليها ويؤخذ

(١) القاموس المحيط : مادة فسر .
(٢) مجمع البحرين ٤٠١/٣ (فسر) .
(٣) سورة النساء ٤ : ٨٣ .
(٤) سورة محمّد ٤٧ : ٢٤ .
(٥) سورة آل عمران ٣ : ٧ .

بظواهرها ، وهي وظيفة العارفين باللغة وقواعد الفقه والأحكام ، أمّا المتشابهات فقد أُرجع تأويلها إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ من خصّهم الله سبحانه بالعلم الذين عُبّر عنهم بالراسخين في العلم وهم أئمّة أهل البيت عليهم السلام كما ورد في الروايات المتواترة .

ومن هنا قال فقهاء الإمامية بوجوب الأخذ من الراسخين في العلم (وهم أئمّة أهل البيت عليهم السلام) في فهم المتشابهات ، لأنّهم عدل القرآن وحملته ، وقد خوطبوا به ، وقد نزل القرآن في بيوتهم عليهم السلام .

وقد استنكر أئمّة أهل البيت عليهم السلام تفسير القرآن علىٰ أساس الرأي والقياس والاستحسان والظنّ والتخمين ، لأنّه يبعد المسلم عن بيان المراد الواقعي للمولىٰ عزّ وجلّ .

أشار الشيخ البلاغي (ت ١٣٥٢ هـ) في معرض بيان الحاجة إلىٰ التفسير ، فقال : «إنّ للتفسير مقامات ، منها :

الأوّل : في مفردات ألفاظه وبيان معناها بالعربية ، فيرجع في التفسير لمفردات الفاظه إلىٰ ما يحصل به الاطمئنان والوثوق من مزاولة علم اللغة العربية والتدبّر في موارد استعمالها في كلام العرب .

الثاني : يحتوي القرآن علىٰ أرقىٰ وجوه البلاغة العربية وتفنّنها بمحاسن المجاز والاستعارة والكناية وغيرها ممّا كان مأنوس الفهم في عصر النزول ، غير أنّ عوامل تأريخية أدّت إلىٰ اختلاط الأمم الأخرىٰ بالعرب فتغيّر أسلوب الكلام العربي في عامّة الناس ، فعاد ذلك لدىٰ العامّة يحتاج إلىٰ معرفته إلىٰ التعلّم والتدرّب ، فالحاجة إلىٰ التفسير هي حاجة إلىٰ الكشف عن هذه الأسرار والنكت البلاغية المستعملة في القرآن .

الثالث : في معرفة شأن النزول ، فقد جاء في القرآن شيءٌ كثير من

الألفاظ العامّة التي يراد بها الخاصّ، أو التي هي نصّ في خاصّ باعتبار نزولها في شأنه، وغير ذلك ممّا كان معروفاً في عصر نزوله، ثمّ صارت أسباب الخفاء تختلسه شيئاً فشيئاً وتعمل ضدّه.

والمفزع في تفسير ذلك هو ما يحصل به العلم من إجماع المسلمين في الرواية للتفسير، أو في الرواية عن رسول الله ﷺ في الدلالة على من يفزع إليه بعده في تفسير كتاب الله كحديث الثقلين المتواتر القطعي بين الفريقين...»[1].

لقد أخذ علماء الإمامية علوم القرآن من أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين هم أبواب علم النبيّ ﷺ، خصوصاً علم التفسير والقراءة، والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، والنحو والصرف، وغريب القرآن، ومجازات القرآن، وفضائله.

وقد أشار ابن أبي الحديد إلى علم أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «وما أقول في رجلٍ تعزى إليه كلّ فضيلة وتنتهي إليه كلّ فرقة وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها ومجلّي حَلْبتها، كلّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى... ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ ومنه فُرّغ، وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحّة ذلك، لأنّ أكثره عنه (عليه السلام) وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عبّاس في ملازمته له وانقطاعه إليه وأنّه تلميذه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط»[2].

(١) آلاء الرحمن ١/٣٢ ـ ٤٧.
(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٧ ـ ١٩.

فأوّل من صنّف في التفسير هو عبد الله بن العبّاس (ت ٦٨ هـ)، ثمّ استمرّت تفاسير القرآن في المدرسة الإمامية تزدهر على مدى خمسة عشر قرناً، بذل فيها فقهاء الشيعة مهجهم من أجل الحفاظ على القرآن وإيصال مفاهيمه الواقعية ـ على قدر مقدرتهم العلمية الهائلة ـ إلى المكلّفين.

وسوف نرصد بإذنه تعالى تفاسير المدرسة الإمامية على مدى القرون الماضية، ونبدأ بمدرسة القرن الأوّل الهجري.

١ ـ مدرسة القرن الأوّل الهجري:

نعِمَ القرن الأوّل الهجري بنعمة نزول القرآن الكريم على صدر رسول الله ﷺ، وتنعّم المسلمون بقربهم من عصر النصّ ووجود النبيّ محمّد ﷺ وأهل بيته الطاهرين بين ظهرانيهم. وكان العلم في ذلك العصر هو حفظ الرواية بالسماع مباشرة أو بسند صحيح عن رسول الله ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، ولذلك كان التفسير هو إمّا أن يحفظ الراوي رواية ما تفصّل آية من آيات كتاب الله، أو أن يأخذ القلم ويضعه في المداد ليكتب الآية الكريمة ويكتب رواية تفسيرها عن النبي ﷺ أو أحد أئمّة أهل البيت عليهم السلام. ومع أنّ كتب التأريخ والحديث والرجال تذكر اسماء العديد من الرواة إلّا أنّها خصّصت اسمين في عالم التفسير، هما: عبد الله بن عبّاس وسعيد بن جبير، وبدرجة أضيق ورد اسم ميثم التمّار في المصنّفات التفسيرية.

عبد الله بن عبّاس:

قيل: أوّل من صنّف في التفسير كان الصحابي عبد الله بن العبّاس

(المتوفّى سنة ٦٨ هـ). ذكره ابن النديم في **الفهرس** في كتب التفاسير وسمّى كتابه **كتاب التفسير للإمام أبي جعفر الباقر** عليه السلام، وقال: «روى التفسير عن ابن عبّاس: مجاهد بن جبر وهو أبو الحجّاج المقري (ت ١٠٢ أو ١٠٣ هـ)، وذكر أنّه رواه عن مجاهد حميد بن قيس (المتوفّى زمن الحجّاج)؛ وأبو نجيح، ورواه عن أبي نجيح ورقاء وعيسى بن ميمونة»[١].

وابن عبّاس هو عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لازم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حداثته، وتوفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، وشهد مع عليّ عليه السلام الجمل وصفّين والنهروان[٢] كما ذكره الشيخ المفيد، ولّاه الإمام علي عليه السلام البصرة بعد حرب الجمل، واستمرّ والياً عليها حتّى استشهاد الإمام عليه السلام في سنة أربعين للهجرة.

وكان ابن عبّاس يقول: «ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن عليّ بن طالب»[٣]. قال فيه ابن مسعود رحمه الله: «نِعمَ ترجمان القرآن ابن عبّاس»[٤]. وكان من تلامذته: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح[٥].

ليس لابن عبّاس تفسير مطبوع، ولكن هناك كتاب يُنسب إليه عنوانه **تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس** جمعه أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي الشافعي صاحب **القاموس المحيط** (ت ٨١٧ هـ). قال الشيخ

(١) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ٥١.
(٢) تاريخ بغداد ١٨٥/١ ضمن الترجمة رقم ١٤.
(٣) المحرّر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز ٤١/١.
(٤) المصنّف ٥١٩/٧ ح ٥.
(٥) تهذيب الكمال ١٥٦/١٥ ضمن الترجمة ٣٣٥٨.

آغا بزرك الطهراني: «تفسير ابن عبّاس الموسوم **بتنوير المقباس من تفسير عبد الله بن عبّاس** في أربعة أجزاء الذي نسبه الحافظ شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السخاوي في **الضوء اللامع** إلى محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي»[١]. ولم يصرّح الشيخ آغا بزرك رحمه الله بصحّة نسبة الكتاب إلى ابن عبّاس. والظاهر أنّ كتاب **تنوير المقباس** منسوب إلى ابن عبّاس، ولم نجد دليلاً على صحّة كون **تنوير المقباس** من مصنّفاته.

سعيد بن جبير:

وسعيد بن جبير الشهيد (ت ٩٥ هـ) الذي قتله الحجّاج بن يوسف الثقفي له تفسيرٌ للقرآن. ذكر **تفسير سعيد بن جبير ابن النديم**[٢]. قال مصنّف **الشيعة وفنون الإسلام**: «وأوّل من صنّف في علم تفسير القرآن سعيد بن جبير التابعي رحمه الله، كان أعلم التابعين في التفسير كما حكاه السيوطي في **الإتقان**، ولم ينقل تفسيراً لأحدٍ قبله. وكان ابن جبير من خلّص الشيعة، نصّ على ذلك علماؤنا في كتب الرجال، كالعلّامة الحلّي جمال الدين بن المطهّر في **الخلاصة**، وابن عمر الكشّي في كتابه **الرجال**، وروى روايات عن الأئمّة في مدحه وتشيعه واستقامته، قال: وما كان سبب قتل الحجّاج له إلّا على هذا الأمر ـ يعني التشيّع ـ ويُعدُّ سعيد بن جبير من أئمّة علم القرآن عند الشيعة»[٣].

والظاهر أنّ سعيد بن جبير هو أوّل من نقل روايات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الذريعة ٢٤٤/٤.
(٢) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ٥١.
(٣) الشيعة وفنون الإسلام: ٢٥، ٣٥.

وأهل البيت عليهم السلام الخاصّة بتوضيح معاني القرآن الكريم أو تفصيلها في كتاب روائي قرآني ، وإذا استثنينا ابن عبّاس ـ لأنّه لم يكتب تفسيراً بل روىٰ روايات في تفسير القرآن ـ يكون سعيد بن جبير هو أوّل من كتب تفسيراً للقرآن الكريم .

ميثم التمّار :

ومن التفاسير التي ورد ذكرها في الكتب الرجالية : **تفسير ميثم التمّار** . وهو ميثم بن يحيىٰ التمّار الكوفي من خواصّ أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والشهيد (سنة ٦٠ هـ) بعد قطع يديه ورجليه وصلبه وقطع لسانه بأمر [عبيد الله] بن مرجانة كما أخبره به مولاه أمير المؤمنين عليه السلام . وتفسيره بعض ما تعلّمه من أمير المؤمنين عليه السلام ، فأملاه التمّار علىٰ ترجمان القرآن حبر الأمّة ابن عبّاس (ت ٦٨ هـ) كما في رواية الكشّي في ترجمة ميثم ، وإنّه بعد إلقاء التفسير علىٰ ابن عبّاس أخبره بكيفية قتله علىٰ يد ابن مرجانة فظنّ ابن عبّاس أنّه كهانة ، فأراد أن يخرق ما كتبه عن إملائه من التفسير فقال له ميثم : احتفظ بما سمعته منّي فإن كان ما قلته حقّاً أمسكته وان يكُ باطلاً خرقته . وبعد مضيّ أيّام وقع تمام ما أخبر به[1] .

٢ ـ مدرسة القرن الثاني الهجري :

ومدرسة هذا القرن تشكّلت من أصحاب أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين صحبوهم عليهم السلام وكتبوا رواياتهم ، ثمّ جمعوا الروايات الخاصّة بتفسير

(١) الذريعة ٣١٧/٤ .

الكتاب المجيد في مصنّفات مستقلّة ، كالسدّي ، وابن أبي هند ، وأبان بن تغلب ، والكلبي ، وأبي بصير ، وأبي حمزة الثمالي ، وأبي الجارود أيّام استقامته ، والبطائني ، والجواليقي .

ولمّا كان أغلب مفسّري هذا القرن ممّن صاحب أئمّة الهدىٰ عليهم السلام وكتبوا مصنّفاتهم نقلاً عن أحاديث سمعوها عن أئمّتهم عليهم السلام كان لكتب التفسير تلك أهميةٌ بالغة عند فقهاء الإمامية . والظاهر أنّ تلك الكتب أو علىٰ الأقلّ جزء منها كان قد أدرج ضمن المتون الحديثية الكبرىٰ كـ : **الكافي ومن لا يحضره الفقيه والاستبصار والتهذيب** التي جمعت في القرن الرابع والخامس ، أو ربّما بقيت بعضها إلىٰ حدّ عصر العلّامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) حيث أضافها إلىٰ كتابه الكبير **بحار الأنوار** .

ومن تلك التفاسير :

١ ـ تفسير السدّي ، لأبي إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة القرشي التابعي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) . كان من أصحاب الإمام السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام . قال السيوطي : «إنّ تفسير إسماعيل السدّي من أمثل التفاسير»[1] . إلّا أنّ الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ذمّ منهج السدّي في التفسير[2] ، ولا نعلم سبب الذمّ ، لأنّ التفسير لم يصلنا بشكله المستقلّ .

٢ ـ تفسير ابن أبي هند[3] ، لأبي بكر داود بن دينار السرخسي (ت ١٣٩ هـ) ، وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام .

٣ ـ تفسير أبان بن تغلب بن رباح ، وأبان هو أبو سعيد البكري

(١) انظر : الإتقان ٤٩٧/٢ رقم ٦٣٨٩ .
(٢) التبيان ٦/١ .
(٣) الفهرست ـ لابن النديم ـ : ٥١ .

الجريري (ت ١٤١ هـ). توفّي في حياة الإمام الصادق عليه السلام، ونعاه الإمام عليه السلام بقوله: «لقد أوجع قلبي موت أبان»[١]. كانت له منزلة عظيمة عند أهل البيت عليهم السلام، عاصر الإمام السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام. ذكره ابن النديم في أكثر من موضع، فقال خلال عدّه لكتبه: «كتاب التفسير لابن تغلب»[٢]. ثمّ في موضع آخر قال: «كتاب **معاني القرآن** لطيف **وكتاب القراءآت**»[٣]. وعن كتاب **القراءآت** قال النجاشي: «ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القرّاء»[٤]. وأشار الشيخ الطوسي: «هذه ثلاثة كتب في القرآن لأبان، والرابع: كتاب **الغريب في القرآن**»[٥].

٤ ـ **أحكام القرآن**، لأبي نصر محمّد بن السائب بن بشر الكلبي (ت ١٤٦ هـ) من أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام، والكتاب هو **شرح آيات الأحكام**. والمصنّف والد هشام الكلبي النسّابة الشهير وصاحب **التفسير الكبير**[٦].

قال ابن النديم عند ذكره المصنّفات في علم أحكام القرآن: «كتاب **أحكام القرآن** للكلبي رواه عن ابن عبّاس»[٧].

قال الشيخ آغا بزرك الطهراني: «هو أوّل من صنّف في هذا الفنّ كما يظهر من تأريخه، لا الإمام الشافعي محمّد بن إدريس المتوفّى سنة

(١) من لا يحضره الفقيه ٤/٤٣٥ الخاتمة.
(٢) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ٥٠.
(٣) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ٣٠٨.
(٤) رجال النجاشي: ١١ رقم ٧.
(٥) انظر: الفهرس ـ للشيخ الطوسي ـ: ٥٧ رقم ٦١.
(٦) الذريعة ١/٤٠ التسلسل ١٩٢.
(٧) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ٨١ الفنّ الثالث من المقالة الأولى.

٢٠٤ هـ كما ذكره العلّامة السيوطي ـ ولذا صرّح به في **كشف الظنون** في عنوان أحكام القرآن ـ لأنّ الشافعي ولد بعد وفاة الكلبي بتسع سنين... ولا القاسم بن أصبغ بن محمّد بن يوسف البياني القرطبي الأندلسي الأخباري اللغوي المتوفّى سنة ٣٤٠ المولود بعد وفاة الشافعي بثلاث وأربعين سنة، لأنّه ولد سنة ٢٤٧ كما ذكره أيضاً السيوطي في **بغية الوعاة**. ثمّ إنّ جمعاً من أصحابنا تابعوا الكلبي في إفراد آيات الأحكام وتفسيرها...»[١].

إلّا أنّ الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ذمّ منهجه في التفسير أيضاً[٢].

٥ ـ **تفسير أبي بصير**، وهو يحيى بن أبي القاسم الأسدي (ت ١٥٠ هـ) الثقة المعدود من أصحاب الإجماع والراوي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.

٦ ـ **تفسير أبي حمزة الثمالي**، وهو أبو حمزة ثابت بن أبي صفية دينار الثمالي (ت ١٥٠ هـ)، تشرّف بخدمة الأئمّة الأربعة: الإمام السجّاد والباقر والصادق والكاظم عليهم السلام.

٧ ـ **تفسير أبي الجارود**، وأبو الجارود هو زياد بن منذر (ت ١٥٠ هـ)، كان أعمى من حين ولادته، وتنسب إليه الزيدية الجارودية، وكان من أصحاب الأئمّة الثلاثة: الإمام السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام، ولكن يروي تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام بالخصوص أيّام استقامته، وكأنّه كان يتلقّى إملاء الإمام عليه السلام له مباشرة ويوكّل من يستنسخه له، ولذلك يقال

(١) الذريعة ١/٤٠ ـ ٤١.
(٢) تفسير التبيان ١/٦.

لتفسير أبي الجارود : «**كتاب الباقر** عليه السلام رواه عنه أبو الجارود»[١].

ولهذا التفسير طريقان : أحدهما ضعيف ، وهو أبو سهل كثير بن عيّاش القطّان وقد ضعّفه علماء الرجال ، والطريق الثاني صحيح ، وهو عن طريق تلميذ علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي رواه بإسناده إلىٰ أبي بصير يحيىٰ بن أبي القاسم الأسدي (ت ١٥٠ هـ) المصرّح بتوثيقه في علم الرجال .

وبالنتيجة ، فإنّ هذا التفسير من التفاسير المعتبرة في المدرسة الإمامية لسببين :

الأوّل : إنّ طريقه إلىٰ الإمام الباقر عليه السلام صحيح بإسناده إلىٰ أبي بصير .

الثاني : إنّ المصنّف كتبه أيّام استقامته وقبل انحرافه عن خطّ الإمامة ، وبالتالي فإنّ الروايات المروية فيه لم تمسّها يد التحريف ظاهراً .

٨ ـ **تفسير مقاتل** ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن زيد بن أدرك الرازي (ت ١٥٠ هـ) ، عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام . له كتاب **التفسير الكبير** ، **والناسخ والمنسوخ** ، **وتفسير الخمسمائة آية** ، **وكتاب القراآت** ، **ومتشابه القرآن** ، **ونوادر التفسير** ، وكتاب **الجوابات في القرآن** ، **والآيات المتشابهات** ، وغير ذلك . وحكىٰ اليافعي عن الشافعي أنّ النّاس كلّهم عيالٌ مقاتل بن سليمان في التفسير[٢] .

٩ ـ **تفسير البطائني** ، لعليّ بن أبي حمزة سالم البطائني الكوفي من أصحاب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام ، ويروي أكثر تفسيره عن أبي بصير يحيىٰ بن أبي القاسم ، وهو ممّن أجمعت العصابة علىٰ تصحيح ما يصحّ

(١) الفهرست ـ لابن النديم ـ : ٥٠ .
(٢) الذريعة ٤/٣١٥ .

عنه ، روىٰ النجاشي تفسيره وسائر كتبه عنه بأربع وسائط[١] .

١٠ ـ **تفسير الجواليقي** ، لهشام بن سالم الجواليقي الثقة ، من أصحاب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام ، ويروي عنه محمّد بن أبي عمير ، ويروي النجاشي تفسيره عنه بأربع وسائط[٢] .

ومن المحزن أنّ أكثر تفاسير المدرسة الإمامية في القرنين الأوّل والثاني قد فقدت ، مثل **تفسير سعيد بن جبير** (ت٩٥ هـ) ، **وتفسير السدي** (ت ١٢٧ هـ) ، **وتفسير محمّد بن السائب الكلبي** (ت ١٤٦ هـ) ، **وتفسير أبي بصير** (ت ١٥٠ هـ) ، **وتفسير أبي الجارود** (ت ١٥٠ هـ) ، **وتفسير جابر بن يزيد الجعفي** (ت ١٢٧ أو ١٣٢ هـ) .

ونقصد بفقدانها أي فقدان أثرها كمصنّفات مستقلّة ، والأرجح أنّها أدخلت في الموسوعات الحديثية الكبرىٰ كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً .

٣ ـ مدرسة القرن الثالث الهجري :

امتاز هذا القرن بكثرة التفاسير الروائية ، كـ: **تفسير ابن همّام الصنعاني** ، وابن وضّاح ، وابن محبوب ، وابن فضّال ، وابن مهزيار ، وابن أبي شعبة ، وابن بابويه ، وابن أسباط ، وابن أرومة ، والبرقي . ولم تصلنا أغلب تلك التفاسير بصورتها المستقلّة وإنّما وصلتنا ضمن المجاميع الحديثية ، وربّما التفسير الوحيد الذي وصلنا بصورته المستقلّة هو التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام .

فمن تفاسير تلك الفترة :

(١) رجال النجاشي : ٢٤٩ رقم ٦٥٦ .
(٢) رجال النجاشي : ٤٣٤ رقم ١١٦٥ .

١ ـ تفسير ابن همّام الصنعاني، وهو أبو بكر عبد الرزّاق بن همّام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١ هـ). ترجمه الذهبي وأطراه ونقل عن الذين وثّقوه، وقال: «ونقموا عليه التشيّع، وما كان يغلو فيه بل كان يحبّ عليّاً ويبغض قاتله»[١]. روىٰ عنه سفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين. وحكىٰ ابن خلّكان عن السمعاني أنّه زعم أنّه ما رحل النّاس إلىٰ أحد بعد رسول الله ﷺ مثل ما رحلوا إليه[٢].

أقول: هي مبالغة في تعظيمه، وإلّا فإنّ الناس رحلوا بعد رسول الله ﷺ إلىٰ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، خصوصاً الإمام الصادق عليه السلام الذي كان يعجُّ درسه بالآلاف من طلبة العلم كما نقله لنا التأريخ.

ليس له ترجمة مفصّلة في كتبنا الرجالية عدا ذكر الشيخ الطوسي له في عداد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[٣]. ويعدُّ هذا التفسير من أقدم تفاسير الشيعة الإمامية.

٢ ـ تفسير ابن وضّاح، لم نعرف اسم المصنّف، وإنّما ذكره الشيخ الطوسي في باب الكنىٰ من **الفهرست** وذكر أنّه يرويه عنه أحمد بن ميثم حفيد الفضل بن دكين الحافظ الثبت الكوفي (المستشهد سنة ٢١٩ هـ)[٤]، فيظهر أنّه من رجال القرن الثالث.

٣ ـ تفسير ابن محبوب، لأبي علي الحسن بن محبوب السرّاد أو الزرّاد (ت ٢٢٤ هـ). عدّه الكشّي من أصحاب الإجماع[٥]، وفي **الفهرست**

(١) تذكرة الحفّاظ ١/٣٦٤.
(٢) وفيات الأعيان ٣/٢١٦ رقم ٣٩٨.
(٣) رجال الطوسي: ٢٦٥ رقم ٣٨٠٥.
(٤) الفهرست ـ للطوسي ـ: ٢٨٢ رقم ٩٠٦.
(٥) رجال الكشّي ١/٨٣٠ رقم ١٠٥٠.

للشيخ الطوسي أنّه كان يعدُّ في الأركان الأربعة في عصره وروىٰ عن ستّين رجلاً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[١]. والمصنّف من أصحاب الإمام الكاظم والرضا والجواد عليهم السلام[٢].

قال الشيخ آغا بزرك: «والعجب أنّ الرجل (أي ابن محبوب) علىٰ جلالة قدره وقد ذكره أبو العبّاس النجاشي فيما يقرب من عشرين موضعاً من رجاله ـ استقصاها المولىٰ عناية الله القهبائي في كتابه **مجمع الرجال** ـ وذكر كتابه المشيخة مكرّراً في عدّة مواضع منه ومع هذا كلّه نسىٰ أن يعقد له ترجمة مستقلّة في رجاله الذين هم العمدة من الأصول الرجالية لنا، وإهمال مثل هذا الرجل فيه من أقوىٰ البراهين علىٰ صحّة ما شرحناه من ذهاب تراجم كثير من أصحابنا علىٰ أئمّة الرجال، وبفوات التراجم ضاعت عنّا أسماء كتبهم المقروءة عليهم أو المسموعة عنهم، وأسانيد الأحاديث المروية في كتبنا الموجودة اليوم تدلّنا علىٰ وجود تلك الكتب في أعصارهم، فإنّ الرواية عن أحد في تلك الأعصار لم تكن إلا بالقراءة أو السماع من كتابه، وما كانوا يكتفون بالسماع عن ظهر القلب كما لا يخفىٰ»[٣].

٤ ـ تفسير ابن فضّال الكبير، لأبي محمّد الحسن بن علي بن فضّال الكوفي التيملي مولىٰ تيم الله بن ثعلبة (ت ٢٢٤ هـ)، أعتقد بالفطحية ثمّ تركها ورجع عن ذلك في آخر عمره، ذكره ابن النديم في فهرسه[٤]. وله

(١) الفهرست ـ للطوسي ـ: ٩٧ رقم ١٦٢.
(٢) رجال الطوسي: ٣٣٤ رقم ٤٩٧٨ و٣٥٤ رقم ٥٢٥١.
(٣) الذريعة ٤/٢٤٨.
(٤) الفهرست ـ لابن النديم ـ: ١٧١ الفنّ الخامس من المقالة السادسة.

كتابان آخران هما : **الشواهد من كتاب الله ، والناسخ والمنسوخ** .

٥ ـ تفسير ابن مهزيار ، لأبي الحسن علي بن مهزيار الدورقي الأهوازي (توفّي بعد سنة ٢٢٩ هـ) الثقة الوكيل للأئمّة الثلاثة : أبي الحسن الرضا وأبي جعفر الجواد وأبي الحسن الثالث عليهم السلام . وله أيضاً كتاب **حروف القرآن** كما في **فهرست الشيخ الطوسي**[١] . ومصنف هذا الكتاب هو غير علي بن إبراهيم بن مهزيار الذي تشرّف بخدمة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه) .

٦ ـ تفسير ابن أبي شعبة ، لأبي جعفر محمّد بن علي بن أبي شعبة الحلبي الثقة ، وهو فقيه بين الأصحاب ، يرويه عنه ابن عقدة (ت ٣٣٣ هـ) بواسطتين ، فصنّفناه من أعلام القرن الثالث الهجري .

٧ ـ تفسير ابن بابويه ، لأبي الحسن عليّ بن الحسين بن موسىٰ بن بابويه القمّي ، وهو والد الشيخ الصدوق (ت ٣٢٩ هـ) ، يرويه النجاشي عنه بواسطة واحدة ، «وهذا سندٌ عالٍ»[٢] . والواسطة هو شيخه المعمّر عبّاس بن عمر الكلوذاني . ويطلق علىٰ المصنّف وولده : (الصدوقان) .

٨ ـ تفسير ابن أسباط ، لأبي الحسن علي بن أسباط بن سالم الكوفي الثقة الراوي عن الإمام الرضا عليه السلام وأبي جعفر الجواد عليه السلام ، يرويه عنه ابن عقدة بواسطة واحدة ، ذكره النجاشي في رجاله[٣] .

٩ ـ تفسير ابن أرومة ، لأبي جعفر محمّد بن أرومة القمّي الذي خرج التوقيع من الإمام الهادي عليه السلام إلىٰ أهل قم في براءته ممّا نسب إليه من

(١) الفهرست ـ للطوسي ـ : ١٥٢ رقم ٣٧٩ .
(٢) الذريعة ٤/٢٤١ .
(٣) رجال النجاشي : ٢٥٢ رقم ٦٦٣ .

الغلوّ . عدّ النجاشي كتاب **تفسير القرآن** من تصانيفه[١] .

١٠ ـ تفسير البرقي الصغير ، لأبي جعفر أحمد بن أبي عبد الله محمّد بن خالد البرقي مؤلّف كتاب **الرجال** وكتاب **المحاسن** (ت ٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ) . وهناك كتاب تفسيري آخر لوالده يسمّىٰ **تفسير البرقي الكبير** الذي كان من أجلّاء الأصحاب .

وكتاب **المحاسن** يشتمل علىٰ عدّة كتب ، منها **كتاب التفسير وكتاب التأويل** كما قاله الشيخ الطوسي في **الفهرست**[٢] . أمّا النجاشي فقد ذكر كتاب التفسير فقط[٣] . وقد روىٰ الشيخ الطوسي والنجاشي عنه كتبه بثلاث وسائط .

التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام :

تفسير العسكري الذي أملاه الإمام الحسن العسكري عليه السلام القائم بأمر الإمامة سنة ٢٥٤ هـ والمستشهد سنة ٢٦٠ هـ ، وهو برواية الشيخ أبي جعفر محمّد بن علي بن بابويه القمّي ، واعتمد عليه الشيخ الصدوق في **من لا يحضره الفقيه** ، والطبرسي في **الاحتجاج** ، وابن شهرآشوب في **المناقب** ، والمحقّق الكركي في إجازته لصفيّ الدين ، والشهيد الثاني في **المنية** ، والمولىٰ محمّد تقي المجلسي في **شرح المشيخة** ، وولده العلّامة المجلسي في **بحار الأنوار** .

وقد أثير جدلٌ واسعٌ بين علماء الإمامية حول هذا التفسير المنسوب

(١) رجال النجاشي : ٣٣٠ رقم ٨٩١ .
(٢) الفهرست ـ للطوسي ـ : ٦٣ رقم ٦٥ .
(٣) رجال النجاشي : ٧٦ رقم ١٨٢ .

إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام ، فهل أنّ الكتاب المسمّىٰ بـ: **تفسير الإمام العسكري** عليه السلام منسوب إلىٰ الإمام عليه السلام وليس من إملائه ؟

لو تفحّصتَ الكتب الرجالية لاستخلصتَ أنّ للإمام العسكري عليه السلام كتابين في التفسير :

الأوّل : جمعه الحسن بن خالد البرقي كما ذكره ابن شهرآشوب في **معالم العلماء**[1] ، وهو تفسير يقع في مائة وعشرين مجلّداً ، ولم يصلنا هذا الكتاب .

الثاني : جمعه يوسف بن محمّد بن زياد وعلي بن محمّد بن سيار (وهما مجهولان في علم الرجال) ورواه عنهما الاسترآبادي المعروف بأبي الحسن الجرجاني المفسّر (وهو مجهول الحال أيضاً) ، وهذا الكتاب المتداول هو المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام .

وقد انقسم الرأي العلمي حول هذا الكتاب وتخندق حول معسكرين :

الأوّل : قال بأنّ الكتاب ضعيف ولا يمكن أن يصدر من عالم من العلماء فضلاً عن المعصوم عليه السلام . ومن روّاد هذا المعسكر : العلّامة الحلّي ، والمحقّق الداماد ، والشيخ البلاغي ، والسيّد الخوئي . نقده السيّد الخوئي قدس سره بالقول : « . . .هذا مع أنّ الناظر في هذا التفسير لا يشكّ في أنّه موضوع ، وجلّ مقام عالم محقّق أن يكتب مثل هذا التفسير فكيف بالإمام عليه السلام»[2] .

الثاني : قال بأنّ الكتاب أثر من آثار أهل البيت عليهم السلام وينبغي أن

(١) معالم العلماء لابن شهرآشوب : ٧٠ رقم ١٨٩ .
(٢) معجم رجال الحديث ١٥٧/١٣ رقم ٨٤٤٢ .

يؤخذ بعين الاعتبار . ومن روّاد هذا المعسكر : المجلسي الأوّل (الأب) والمجلسي الثاني (الإبن) . قال المجلسي : «وتوهّم أنّ مثل هذا التفسير لا يليق أن ينسب إلىٰ المعصوم مردود ، ومن كان مرتبطاً بكلام الأئمّة يعلم أنّه كلامهم عليهم السلام ، واعتمد عليه شيخنا الشهيد الثاني ونقل أخباراً كثيرة منه في كتبه ، واعتماد التلميذ الذي كان مثل الصدوق يكفي ، عفا الله عنّا وعنهم»[1] .

وروىٰ الشيخ الصدوق عن هذا التفسير أخباراً في **الأمالي والتوحيد ومعاني الأخبار** .

والملاحظ أنّ الروايات في هذه الكتب الثلاثة تشمل الصحيحة والضعيفة ، فلا يعني ذلك صحّة اعتماد الشيخ الصدوق عليه .

أمّا في **من لا يحضره الفقيه** الذي قال فيه الصدوق بأنّه لا يذكر فيه إلّا الروايات التي يراها حجّة بينه وبين ربّه عزّوجلّ فقد روىٰ رواية في التلبية اختلف الفقهاء في كونها من هذا التفسير أو من غيره . وبالإجمال ، فإنّ موقف الشيخ الصدوق لا يساعد علىٰ توثيق التفسير المنسوب إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام .

وقد أفرد الشيخ البلاغي (ت ١٣٥٢ هـ) رسالة خاصّة في إبطال نسبة هذا التفسير إلىٰ الإمام العسكري عليه السلام ، قال : «وأمّا التفسير المنسوب إلىٰ الإمام الحسن العسكري عليه السلام فقد أوضحنا في رسالة منفردة في شأنه أنّه مكذوب موضوع ، وممّا يدلّ علىٰ ذلك نفس ما في التفسير من التناقض والتهافت في كلام الراويين وما يزعمان أنّه رواية ، وما فيه من مخالفة

(١) روضة المتّقين ٢٥٠/١٤ باب الميم .

الكتاب المجيد ومعلوم التاريخ، كما أشار إليه العلّامة في **الخلاصة** وغيره»[١].

وبالإجمال، فإنّه لا يمكن الاعتماد على صحّة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام العسكري عليه السلام. وأقلّ ما يقال في المقام هو: إنّه ينبغي تمييز الروايات الصحيحة عن السقيمة عبر مطابقتها بالروايات الصحيحة في الكتب الروائية الأُخرى.

وللبحث صلة...

(١) آلاء الرحمن ١/٤٩.